القصة الثالثة ـ على موعد مع الأمومة

زهرة ملاك

غاب الفرح عن حياتي، فكلمة عقيم ومنذ أن نطقها الطبيب وأكدتها جميع التحاليل، كانت كالشوكة التي توغلت في روحي فأدمتها، فصرت أنسج قصصا مختلفة لحياتي، بل لحياتنا (أنا وزوجي)فتارة أراه متربعا على عرش مملكة غير مملكتنا وبجوار قدميه تجلس تلك الأميرة الحسناء تسامره، وتارة أرى نفسي منزوية في غرفة وقد خلا المكان من البهجة التي يمكن أن يجلبها لغو رضيع، أو صخب أطفال.

تخيلت الكثير، وفكرت في الأكثر، وكانت وسادتي هي الشاهدة على كل آلامي؛ فكم ليلة أغرقتها بدموعي إلى أن جفّت مقلتي، فاستسلمت لقدري الذي لن تغير آهاتي منه شيئا، فالله لم يحرمني الذرية إلا لحكمة أجهلها، ولو شاء لرزقني إياها.

أما زوجي فقد كان يعاملني طيلة هذه السنين بكل حب واحترام ولازال، ومن حقه أن يرغب في طفل يحمل اسمه، ولن يتأتى له ذلك إلا بالزواج، حاولت إقناعه بتبني طفل يتيم، لكن بعد حوار طويل جرى ما لم يكن في الحسبان، فقد أقنعني هو باستحالة ذلك، فالتبني قد حرمه ديننا، وكل ما يمكن أن يقدمه ليتيم هو التكفل به، وهو مستعد لفعل ذلك، لكن رغبته الدفينة والتي لم يعرب عنها بتاتا بدأت تظهر جلية عليه، فكل تصرفاته وصمته الطويل أو شروده عند رؤيته لطفل بصحبة والديه كانت تؤكد، بل تؤجج تلك الرغبة.

قادني تفكيري أن أفاتحه في الموضوع مادام هو يخشى مفاتحتي.

– من حقك يا خالد أن تتزوج ثانية(نطقتها بصعوبة)

– ماذا تقولين؟ولماذا سأتزوج ثانية؟ إن كان من أجل الإنجاب فقد رضيت بحكم الله. تمعنت في تقاسيمه كثيرا وكأنني أستشف جوابي منها، ثم أجبت.

– لا ياخالد، أنا أرى وجهك ينطق بما لم ينطق به لسانك، وأعرف مدى عشقك للأطفال.

– حبيبتي، أنا تمنيت فعلا أن يكون لي أبناء من صلبي، أراهم يكبرون أمام ناظري، وتلك كانت أمنيتك أنتِ كذلك، لكن شاء الله ألا يحدث.

– اسمعني يا خالد،أنا الأخرى أتمنى أن أضم أطفالا، ومن الجميل أن أضم أطفالك.

استمر نقاشنا طويلا إلى أن تحول إلى جدال، فهو مصمم على الرفض وأنا كنت مصرة على زواجه، وكأنني كنت أودّ الظهور بمظهر الزوجة المتفهمة، وأنا نفسي ـ استغربت إلحاحي عليه، فكيف لي أنا المرأة الحساسة الغيورة أن أرضى بأخرى تشاطرني زوجي الذي كنت متعلقة به أشد التعلق؟

طويت الصفحة واستمرت حياتنا... لكن شاءت رياح الأقدار أن تحمل لنا خبرا لم نحسب له حسابا؛ في زيارة غير متوقعة لحماتي، جاء الخبر الصادم.

– بني لقد خطبت لك ابنة جارتنا، وهي صبية جميلة ومنها سترزق بابن لك، وقد حددت موعدا مع أهلها للاتفاق على موعد عقد القران(ألقت بهذه الكلمات وتركت خالدا فاغرا فاه من هول الخبر).

أخذتني على جنب وأعربت عن أسفها حيال عقمي، وعن مدى حبها لي، ولكن حبها لرؤية حفيد لها قبل وفاتها قد سيطر على كل أحاسيسها وترجتني أن أتقبل الوضع، فلست أولى زوجة يتزوج عليها زوجها.

لم أعترض، ولَم أوافق فقد لزمت الصمت كردة فعل، أنا الآن أرى ما كنت أحاول أن أقنعه به يتحقق، لكن عن طريق والدته.

رفض خالد بداية لكنه أذعن لرغبتها، فهو ابنها الوحيد ويطيعها طاعة تتمناها أي أم، ولطالما تمنيت أن أنجب ابنا يشبه والده.

ثم الزفاف ولا أنكر أن وجعي(وأنا أرى صبية أصغر مني تزاحمني في قلب زوجي) كان كالسم يسري في أوصالي، ولا ترياق له إلا الموت.

–ماما حبيبتي، أنا بحاجة لحضورك وتشجيعك، فاليوم سألقي كلمة للترحيب بالوفد الأجنبي القادم لزيارة مؤسستي.

أخرجتني تلك الكلمات الحنونة من شرودي، فأجبت:

– وهل أستطيع التأخر عن فلذة كبدي؟

ارتمت صغيرتي بين أحضاني ممطرة إياي بوابل من القبل كعادتها.

صحيح أنني حرمت من الإنجاب لكنني كنت أما حقيقية لصغيرتي التي توفيت والدتها في حادثة سير وهي لم تبلغ أشهرها الستة بعد، رحلت أمها البيولوجية وألقى القدر علي بكلمته الأخيرة:

"لقد حان موعد أمومتك"

"فسبحان من شاء ألا يحرم يتيمة من حنان أم، وألا يحرم قلبي من نعمة الأمومة، أما خالد فكانت الأبوة نورا يشع من عينه ويضيء وجهه" »

*****